

شبهات وأباطيل في العصر العباسي الأول

خالد إسماعيل نايف الحمداني

تمهيد:

أصاب التاريخ الإسلامي الشيء الكثير من الأكاذيب والأباطيل والروايات الموضوعة التي شوّهت عهوداً إسلامية مختلفة، واحتوت على إساءات إلى أحداث تاريخية عظيمة وإنجازات حضارية، كما نسبت إلى خلفاء المسلمين وفقهائهم وقادتهم وولاتهم افتراءات كثيرة. ونجد أقالماً كثيرة قديمة وحديثة انغمست في ذكر هذه الافتراءات والتركيز عليها والمبالغة بها، وبعضهم اندفع بقصد خبيث لتشويه التاريخ الإسلامي بأسره، والبعض الآخر تبني تلك الآراء نتيجة لأخطاء منهجية.

سنحاول في هذه الصفحات استعراض بعض هذه الأقوال وكشف اللثام عن بعض الشبهات الواردة في كتب بعض المؤرخين المتقدمين والباحثين المحدثين عن أزهى العصور الإسلامية، وهو العصر العباسي الأول المشهود له أغلب أحواله بالنجاح السياسي والعسكري فضلاً عن التنظيمات الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والتطور الفكري متمثلاً بالإنجازات العلمية والحضارية والتي أغنت الحضارة الإنسانية، ومن تلك الأقوال:

- وصف العصر العباسي بأنه عصر الظلم والفساد والمجون والطبقية الاجتماعية والتترف.
- وصف خلفاء بني العباس بالابتعاد عن الدين بارتكابهم الكبائر من شرب خمر ولهو ولعب وظلم وغدر واستبداد.

وقمت في هذا البحث بمحاولة لبيان بعض هذه الشبهات ومناقشة أسباب ورودها عند المتقدمين والمتأخرين على حد سواء ومن ثم بيان الصورة الحقيقية للعهد العباسي معتمداً في ذلك على الدراسة والتحليل واستقصاء الأخبار من المصادر التاريخية الموثقة القريبة والمعاصرة للأحداث.

أولاً: أسباب ودوافع ورود تلك الأباطيل:

وقبل أن نغور في تنفيذ بعض هذه الأباطيل نجد من الضروري الانتباه إلى جملة قضايا وأسباب عدة ولدت الخلط عند بعض المؤرخين المتقدمين والباحثين المحدثين، وأدت بهم إلى تشويه صورة العصر العباسي، وسنرى أن البعض كان قاصداً ذلك التشويه والبعض الآخر وقع فريسة أخطاء منهجية، أما الأسباب المكونة للصورة المشوهة هي:

١- التعميم والإطلاق والقياس الشمولي لدى بعض الباحثين، إذ يحكمون على المجتمع الإسلامي بالفساد لظهور حالة سلبية أو عدة حالات فيتهمون العهد العباسي مثلاً بالجور والظلم لبروز بعض المخالفات ويجعلون الشواذ قاعدة شاملة وعامة، إذ يتناقل المدونون والمصنفون هذه الرواية أو تلك الحادثة التي رواها أحد الرواة الأوائل ويسطرونها في كتبهم مما يوقع الباحثين في وهم أن هذا الخبر صحيح وهذا يعلل انتشار وشيوع الكثير من الأخبار الكاذبة بالرغم مما فيها من وهم وخرافة، ومن أمثلة ذلك ما نقله أحد الباحثين في دراسته لأحوال المجتمع في العصر العباسي معتمداً على رواية واردة تناقلتها عدة مصادر فيقول: "وتفنن الطهارة في اصطناع الأطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير أو النفع الصحي وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة في الاحتفاء كما فعل إبراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له أطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه، فسأله الرشيد عن ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك وقدرت ما أنفقت في ذلك الجام بألف درهم"^(١). وما علمنا للسمك ألسنة، فاستناداً إلى حادثة واحدة فيها مبالغات كثيرة يصدر عن أحكاماً عامة وكأنها حقيقة عن حال الترف والبخذ والإسراف التي كان عليها الخلفاء في العصر العباسي.

٢- النظرة الأحادية للرواية التاريخية، إذ ليس بوسع الباحث الوصول إلى الحقيقة التاريخية مستنداً إلى رواية واحدة من غير تحقيق وتدقيق ومن غير البحث عن شواهد أخرى أو إجراء مقارنة مع الروايات المعاصرة للحدث التاريخي، لقد ابتعد البعض عن الصواب حينما اتهم العهد العباسي بالظلم والفساد والمجون معتمداً على كتاب واحد أُلّف في حقل واحد، خاصة وأننا نجد بعض الكتب اختصت بحقل معين كالزهد أو المجون أو اللغة أو الأدب أو غير ذلك فهم يجمعون من الروايات ما يتلاءم مع حقلهم

١- مؤيد فاضل ملا رشيد: شبهات حول العصر العباسي، القاهرة، ط/٢، ١٩٩٠م، ص ٤١.

وميلهم ويتركون ما فيها من جوانب أخرى، فالقارئ لهذه الكتب المتخصصة بفن واحد المقتصرة على ما ورد من الروايات بما ينسجم مع اهتماماتهم يخرج بصورة مقطّعة غير متكاملة، ومما زاد في تشويه الصورة هي المبالغات التي تناقلها الناس في مجالسهم أثناء ذكرهم تلك الكتب والمؤلفات(٢).

٣- اعتمد بعض الباحثين على روايات وردت في مصادر بعيدة عن التاريخ وهي غير موثقة أهملت الإسناد ولكنهم يستسلمون لتلك الأخبار ويبنون عليها دراستهم مع علمهم بأن هذه المصادر اهتم بعضها بالقصص والحكايات، مثلاً كتاب ألف ليلة وليلة والتي قد ثبت عنه أنّ مادته مأخوذة من مصادر الفرس والهنود، كما ذكر ابن النديم في الفهرست أنها مترجمة عن أصل فارسي اسمه هزار أفسانه أي ألف خرافة، نقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري. وغالب هذه القصص يرجع إلى أصل هندي، ووجوه الشبه التي نجدها بين كتب هندية وفارسية لا شك في أنها أقدم من الأصل العربي. فأسماء شاه زمان وشهريار وشهرزاد أسماء فارسية، والقصص التي تتكلم بها البهائم والوحوش لها نظائرها في الأدب الهندي، وفي القصة الهندية (سوكاستياتي) قصة خلية تسرد لصاحبها قصة في غياب زوجها، تقص عليه في كل يوم قصة، وتختتمها دائماً بقولها سأقص البقية غداً إذا بقيت في البيت الليلة. ونجد اسم هارون الرشيد في بعض قصص ألف ليلة وليلة، لذلك ظن بعضهم أنه بطل من أبطالها.

فشوهت ألف ليلة وليلة كذبا وخيالا سيرة الرشيد الذي أصبح رمزا للعصر الذهبي الغابر تفعل فيه الأعاجيب، وتحاك حوله الأساطير، وترجم أنطوان جالان الفرنسي ألف ليلة وليلة تحت عنوان الليالي العربية لأنها ترجمت عن العربية، وظن الأوروبيون أن الرفاه في قصر الرشيد لا يمكن أن يكون إلا كما كان في قصر شارلمان من شراب وفسق وفجور فجعلوا الرشيد بطلا لروايات ألف ليلة وليلة وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم، مع أن الرشيد حاشاه أن يسمع ألف ليلة وليلة لأنها ترجمت إلى العربية بعده بمائة سنة وأكثر، وأضيف إليها على مر العصور حتى العصر المملوكي.

٢- عماد الدين خليل: حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، قطر، ١٩٨٦م، ص ١٣.

ويقال مثل ذلك عن كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني إذ أُلصق الأصفهاني بالرشيد افتراءً أخباره مع أبي نواس، وكل أخبار الرشيد مع أبي نواس مستمدة من الأغاني، وهو كتاب قصصي [١] كتاب تاريخ معتمد وهو كتاب مشكوك صراحة بأمانة مؤلفه، إن كتاب الأغاني الذي جعله كثيرون مرجعاً تاريخياً، والذي قرن بين الرشيد وأبي نواس، صاحبه متهم في أمانته الأدبية والتاريخية، فقد جاء في ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي: "أن الأصفهاني في كتابه الأغاني كان يأتي بالأعاجيب ب: حدثنا وأخبرنا"، وقال الخطيب البغدادي: "كان أبو الفرج الأصفهاني أكذب الناس". فمن يقرأ الأغاني يرى حياة العباسيين لهواً ومجوناً وغناءً، وهذا يناسب المؤلف وخياله وحياته وما حوله، وهذه الصورة التي رسمها الأصفهاني مرفوضة، لأنه يأتي بالأعاجيب ب: حدثنا وأخبرنا، وهي صورة افتراء بحق من كان يحج عاماً ويغزو عاماً ويصلي في كل ليلة مائة ركعة.

وينتقد أحد الباحثين الكتاب المذكور بقوله: "ومن يقرأ في الأغاني لأبي الفرج يخيل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشرفين قد تورطوا في إثمها تورطاً (أي شرب الخمر) وكان منهم من يسرف في شربها إسرافاً شديداً حتى ليتناول منها عشرة أرطال دفعة واحدة".

فلا يصح أن نصور عصراً من عصور تاريخنا المجيد بنقل ما كتبه أولئك الجهال، ولا يجوز أن نصدر حكماً على العصر العباسي بأنه عصر اللهو والمجون مستندين في ذلك إلى كتب القصص والأدب والحكايات(٣).

٤- وردت الكثير من هذه الأقوال المغلوطة عن بعض الباحثين المحدثين المهتمين بالأدب وهم بعيدون كل البعد عن التاريخ ودراسة النصوص وعن تمحيص الروايات وفق المنهج التاريخي الذي يحتم على الباحثين الاعتماد على المصادر المعاصرة للحادثة التاريخية، ومن هؤلاء الأدباء أحمد أمين في كتابه هارون الرشيد، وشوقي ضيف في كتابه العصر العباسي الأول، ومحمد عويس محمد في كتابه المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ(٤).

٣- شوقي أبو خليل: في التاريخ الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٩٩١م، ص ٣٣٥-٣٣٦.

٤- مؤيد فاضل ملا رشيد: شبهات حول العصر العباسي، ص ١٩.

٥- الرؤية الجزئية للحدث التاريخي، ليس للباحث المدقق أن ينظر إلى الحدث من زاوية واحدة وجانب معين بل ينبغي أن يتحلى بالشمولية في النظر إلى الحدث من كل الجوانب السياسية أو الدينية أو الاجتماعية والاقتصادية حتى يستطيع أن يصدر حكماً وتحليلاً قريباً من الصواب، فمن كبائر الأخطاء في المنهج التاريخي اقتطاع الخبر أو جزء منه دون إتمامه لأن ذلك يعطينا صورة عوراء مشوهة عن جوانب عدة اهتمت بها الرواية التاريخية^(٥).

٦- الاعتماد على مجرد النقل والتسليم بصحة الرواية دون دراسة أو تمحيص ورافق ذلك الجهل بمنهج المصنفين، إذ أن الكثير من المؤرخين منهجه الجمع والنقل دون تدقيق أو تحليل وهو ما يسمى بالمنهج الجمعي والذي أشار إليه الطبري في مقدمة مصنفه المشهور حيث يقول: "وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادنا في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى روايتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول، وأستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادئين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهها في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو أدي إلينا"^(٦)، ويقول مؤرخ آخر: "لقد ذكرت أشياء كثيرة تأبأها العقول وتنفر عنها طباع مآلها محصول لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة. وإن كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق وأنا مرتاب بها، نافر عنها متبرئ إلى قارئها من صمتها، لأنني كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد، وطلباً لتحصل القلائد منها والفوائد، فإن كانت حقا أخذنا منها بنصيب المصيب، وإن كانت باطلا فلها في الحق

٥- عماد الدين خليل: حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، ص ١٢.

٦- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، بيروت، ١٩٦٦م، ص ١، ٧، ٨.

شرك ونصيب لأنني نقلتها كما وجدتها فأنا صادق في إيرادها كما أوردتها، ولتعرف ما قيل في ذلك حقا كان أو باطلا^(٧).

وينبه ابن خلدون إلى هذا الخطأ المنهجي بقوله:

”وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهيموا فيها أو ابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها إلينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها فالتحقق قليل وطرق التنقيح في الغالب قليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخلييل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض وطويل ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوم سلطانه والباطل بشهاب النظر شيطانه والناقل هو علي وينقل، والبصيرة تنبه إلى الصحيح إذا أغفل والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل^(٨).”

ثم يستعرض دور المؤرخين المتأخرين بقوله:

”ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد وبليد الطبع أو متبلد، ينسج على ذلك المنوال ويحتذي عنه بالمثل فيجلبون الأخبار عن الدول وحكايات الوقائع في العصور الأولى صوراً قد تجردت عن موادها ... ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا محافظين على نقلها وهما أو صدقا^(٩) ثم يحلل ابن خلدون ما يترتب على مجرد النقل من أخطاء جسيمة فيقول: ”إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة والقواعد السياسية، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل غثاً أو سميماً، لم يعرضوها على أصولها وقاسوها بأشباهها، ولا

٧- ياقوت الحموي: معجم البلدان، مطبعة السعادة، القاهرة، ط/١، ١٩٠٦م، ص ١، ٩، ١٠.

٨- ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد، لجنة البيان العربي، بيروت، ط/٢، ص ٣٨٥.

٩- نفس المرجع.

عيروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في ببداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي مظنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد^(١٠).

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى الملاحظة القيمة التي أبداها عماد الدين خليل حول هذا الموضوع فهو يؤكد على أهمية "الأخذ بأسلوب نقدي رصين في التعامل مع الروايات التي قدمتها مصادرها (القديمة) وعدم التسليم المطلق بكل ما يطرحه مؤرخنا القديم وإحالة الرواية التاريخية لمعرفة هل يمكن أن تتجانس في مداها ولحمتها مع نسيج تلك المرحلة لحمدة ومدى، هذا فضلا عن ضرورة اعتماد مقاييس ومعايير النقاد: الخارجي والباطني وصولا إلى قناعة كافية بصحة الرواية، ويمكن الاستفادة في مجال النقد الخارجي إلى حد ما من علمي مصطلح الحديث و الجرح والتعديل اللذين مورسا على نطاق واسع في عمليات تمحيص الأحاديث النبوية ومن كتب التراجم الغنية ...

ومن ثم فإن دراسة هذا الموضوع دراسة جادة تستلزم بالضرورة دراسة هذا الموضوع الخطير لكي تقوم الأعمال التاريخية معتمدة على أوثق المصادر وأدق الأخبار ومنقحة من حشود الدسائس والسموم وسيل الروايات الموضوعة التي نفتتها القوى المضادة في جسد تاريخنا المتشابك الطويل^(١١).

٧- الشعوبية وتعصب المؤرخ لمذهب أو لجنس أو لفرقة مما أثر سلبا على الحقائق التاريخية وأدى إلى تشويه التاريخ خاصة في العصر العباسي حيث نشط دعاة الشعوبية والزندقة وظهرت العديد من الفرق والحركات، وقد أثر هذا التعصب تأثيرا بالغا في حركة وضع الأخبار وتزييف الروايات والطعن في الجانب الآخر ومحاولة تشويهه والحط من منزلته ووصفه بالدناءة والانحطاط، وعد ابن خلدون التشيعات للآراء والمذاهب من الأسباب

١٠- نفس المرجع، وللتفصيل يراجع: فتحي محمد عثمان، المدخل إلى التاريخ الإسلامي، دار النفائس، ط/٢،

بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٩٩-٢١٠، وعبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وكتابة التاريخ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط/٢، الرياض، ١٩٩٥م، ص ١١٨-١٣٥.

١١- عماد الدين خليل: حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي: ص ١١٨-١١٩.

التي يتطرق الكذب للخبر من قبلها ويقول: "فهم يستندون في ذلك إلى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه" (١٢).

٨- دور بعض المستشرقين في تشويه التاريخ الإسلامي وذلك باتباعهم منهجية في التعامل مع الروايات تزور أحيانا الحقائق بل أن أغلب التشويه الذي نراه عند الباحثين العرب والمسلمين مقتبس عن المستشرقين خاصة فيما يتعلق بالعصر العباسي من خلال الاستجابة الناقصة للحادثة التاريخية وتفسيرها تبعاً للأهواء وانطلاقاً من البيئة الدينية والاجتماعية والفكرية فضلاً عن الإسقاط المسبق أي إصدار أحكام مسبقة ثم البحث عن روايات تؤيد الحكم الصادر وأحيانا بدوافع دينية وسياسية نجد عندهم التعمد في تشويه الأخبار وافتعال الأكاذيب ووضع الافتراءات (١٣).

٩- ونرى أيضاً أن خلفية الباحث وبيئته وما يرى من حوادث معاصرة قد أثرت في أحكام البعض وتحليلاتهم وآرائهم، فبعض المستشرقين ومن تأثرهم بهم انطلق من واقع رجال الدين في أوروبا وعلاقتهم بجوانب الحياة المختلفة فصمم الواقع الكنسي على حال العلماء والفقهاء في التاريخ الإسلامي، بينما نجد بعض الباحثين في البلدان العربية والإسلامية رأى الواقع المؤلم لبعض الفقهاء المعاصرين إذ كان منهم وعاظ للسلاطين فيما تحمل البعض الآخر معاناة وقسوة شديدة بسبب معارضتهم فيما اضطر البعض للتفرغ للعلم والانعزال بعض الشيء عن الحياة السياسية أن هذا الواقع أثر بشكل أو بآخر على إصدار بعض الأحكام العامة وتعميمها على كافة عصور التاريخ الإسلامي.

ثانياً: اتهام الخلفاء العباسيين باللهو والمجون والظلم والفساد:

نجد بعض المؤلفات القديمة والحديثة والتي تناولت الجوانب السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكرية للعصر العباسي إنها أعطتنا صورة مشوهة عن ذلك العصر من خلال نقلها بعض الأخبار الواهية وتأكيداً على تلك الروايات والمبالغة بها، إذ أورد بعض الباحثين المحدثين روايات غريبة أعطت صورة غير صحيحة عن الدولة والمجتمع الإسلامي في العصر العباسي منها ما شاع عن مجتمع العصر العباسي أنه مجتمع طبقي وقسمه بعض الباحثين إلى

١٢- مقدمة ابن خلدون: ص ٢٢١، وإبراهيم علي شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/٥، ١٩٨٣م، ص ٥١.

١٣- عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/١٥، ١٩٩٧م، ص ٩-٢٧.

طبقتين: الطبقة الأولى مجتمع الخاصة وهم الوزراء والكتّاب والقضاة والحجاب، والطبقة الثانية مجتمع العامة، وهي تنقسم إلى قسمين: الأول يضم الشعراء والمغنين والتجار والأطباء والمؤدبين، والثاني يضم الصناع والطوائف الحرفية ومنهم الزراع والعيارين والشطار^(١٤)، ويقسم البعض الآخر المجتمع العباسي إلى ثلاث طبقات: الطبقة العليا وتضم الخلفاء والأمراء والولاة والقادة والوزراء والإقطاعيين، والطبقة الوسطى وتضم التجار والشعراء والقضاة وكتاب الدواوين والمغنين، والطبقة الدنيا وتضم عامة الشعب وأهل الذمة والرقيق^(١٥) وهم إذ يقرون هذا التقسيم يقرون معه التمايز والصراع الطبقي فالطبقة العليا تعيش في رفاهية وترف وبذخ والدنيا تعيش في بؤس وشقاء وجوع وضياع، ويصور لنا ذلك باحث آخر بقوله: "ولا ريب في أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء ومواسيهم من البيت العباسي ومن الوزراء ومن القواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين والشعراء والمغنين ومن العلماء والمثقفين.

وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعا بأسباب النعيم أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء، وأن يتحمل من أعياء الحياة ما يطاق وما لا يطاق، ومرد ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب وحقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد وقد مضوا هم وبطانتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد وطبقات قتر عليها في الرزق فهي تشقى إلى غير حد واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم^(١٦) ويتابع الباحث مبينا أثر ذلك على المجتمع فيقول: "ولا ريب في أن هذا كله على حساب العامة المحرومة التي كانت تحيا حياة بؤس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والقادة وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسي الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثين ألفا لعهد المأمون وطبيعي أن يعم البؤس والشقاء من جانب بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر بل لقد كان الشقاء والبؤس أكثر الجوانب في الحياة العباسية"^(١٧).

-
- ١٤- محمد عويس: المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٥٧، وصلاح عبد الهادي مصطفى الحيدري: المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول، الإسكندرية، ١٩٧١م، ص ٥٠، ٩٢.
- ١٥- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، دار الكتاب العالمي، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص ٢٥٣.
- ١٦- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٦م، ص ٤٥.
- ١٧- نفس المرجع: ص ٥١.

ونجد باحثاً آخر تعمم تعميماً ظالماً فيجعل المجتمع الإسلامي في العصر العباسي بعيداً كل البعد عن المفاهيم الإسلامية فيقول: "اتصف المجتمع العباسي بحياة اللهو والتمتع بالملذات والتأنق في الملابس واقتناء أفخر وأجمل الأثاث بينما المجتمع الأموي لم يسرف في حياة الترف والنعيم فكان يقتبس من الأمم التي اتصل بها بما يتفق وذوقه من ناحية وما لا يبعده عن أصوله العربية من ناحية أخرى وذلك بعكس المجتمع العباسي الذي أقبل بشراهة ونهم على عادات وتقاليد الفرس دون ملاءمة بما يتفق وأصوله العربية فتسابق الخلفاء إلى الانغماس في الترف واللهو كما تفننوا في مجالس الغناء والشراب والرقص، لهذا انساق الرعايا في هذه الحياة مقلدين ملوكهم فتأنق القادرون منهم في المأكل والمشرب وكثرت مجالس الشراب والغناء التي خالطها ألوان من الخلاعة والمجون فأدت هذه الاتجاهات في المجتمع العباسي إلى حياة الزندقة وكثرة الزنادقة الماجنين والملحددين الذين انساقوا إليها على دفعات بادئين بالتهتك ثم الخروج عن الدين ثم إلى الإلحاد حتى غدت الزندقة وحياة الزنادقة متفشية في المجتمع الإسلامي" (١٨).

ثم تعرّض بعض الباحثين إلى الخلافة العباسية فإذا بهم يصورون أحكاماً افتراضية فيها مبالغة وتعميم إذ يصفون الحكم العباسي بأنه كان يقوم على الظلم والتسلط والاستبداد فيقول أحدهم: "وبذلك أصبحنا إزاء حكم استبدادي أشدّ ما يكون الاستبداد، حكم لا يحسب فيه أي حساب للرعية فهي أدوات مسخرة للحاكم وليس لها من الأمر أي شيء ففي يده كل الأمر وكل السلطان" (١٩)، ويقول أيضاً: "ولعلنا لا نغلو بعد ذلك كله إذا قلنا أن النظم السياسية والإدارية في الدولة العباسية طبعت بطابع فارسية قوية؟ تحولت في أثنائها الخلافة ملكاً كسروياً يقوم على الاستبداد والقهر والبطش الذي لا يعرف رفقا ولا لينا" (٢٠) ويقول باحث آخر: "بموجب تلك الحقوق والصفات التي اتصف بها الخليفة العباسي كان مطلق النفوذ مستبد السلطة، بيده أمور الدين والدنيا وهو المصدر الأول والأخير للسلطة، وصاحب الأمر والنهي في الدولة، وما دام الخليفة العباسي قد أصبح ظل الله في أرضه فإنه كان عليه أن يحيط شخصه بالقداسة والرهبنة، فاحتجب عن رعيته وأحيط بلاطهم بقواعد من البروتوكول أشبه بتلك التي سادت بلاط آل ساسان بحيث ينحني الداخل على الخليفة أمامه ويقبل الأرض بين يديه وإذا قرب منه قبل

١٨- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ٢٠٥.

١٩- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص ٢١.

٢٠- نفس المرجع: ص ٢٥.

طرف رداؤه وهذا شرف كبير لا يناله إلا المقربون^(٢١)، ثم يقول في موضع آخر: "استبد الخلفاء العباسيون في حكمهم حتى عهد الرشيد ثم أخذ نفوذهم يضعف تدريجيا نتيجة لازدياد نفوذ الأتراك"^(٢٢). ثم تعرض بعض الباحثين لقصور الخلفاء العباسيين فوصفوها بالأعاجيب بل يظن القارئ لبعض المؤلفين أنه ليس للخلفاء شغل سواها فيقول أحدهم: "اتجه كثير من الخلفاء العباسيين تحت تأثير النفوذ الفارسي من جهة والثروة الطائلة التي رأوا أنفسهم غارقين فيها من جهة أخرى نحو بناء القصور العظيمة وتأثيثها بفأخر الأثاث والرياش، ولم يلبث أن حذا الوزراء والأمراء والقادة وكبار رجال الدولة حذو الخلفاء فأصبحت القصور سمة من سمات العصر العباسي البارزة"^(٢٣).

وسلّط بعض الكتاب الأضواء على حياة الخلفاء العباسيين الشخصية ووصفهم بشتى الأوصاف التي نجد فيها بعدا عن الحقيقة وابتعادا عن الموضوعية إذ ألصقوا بهم كل نقيصة فلم يلتزم الخلفاء بتعاليم الإسلام حسب قول البعض واتخذوا الإسلام غطاء لتثبيت حكمهم فيقول أحدهم: "نستطيع القول بأن العباسيين استفادوا من الدين لتثبيت مركزهم السياسي ... وفقد الناس الشعور بواجبهم نحو الدولة وحكامها لابتعادهم عن التمسك بتعاليم الإسلام"^(٢٤). ويقول: "وزيادة في تقوية صفته الدينية تلقب الخلفاء العباسيون بلقب الإمام تأكيداً لصفتهم الدينية إلا أن تحجبهم عن الناس جعلهم لا يؤمنون الناس في الصلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة مثلما كان يفعل الخلفاء الراشدون"^(٢٥). ويؤكد باحث آخر ذلك بقوله: "أما وعودهم البراقة وتطبيقهم لشعائر الدين والسنة من عدل ومساواة فقد تغافلوا عنها تماما وكأنها لم تكن"^(٢٦). ونجد في كتاب آخر إشارة إلى ذلك بقوله: "وأن نزع بعض الخلفاء نحو التدين والخير ومالوا إلى حياة البساطة ومن هؤلاء المهتدي والمتقي فأن الغالبية نزعت إلى حياة الترف حتى أصبحت قصور الخلفاء العباسيين

٢١- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ٢١٢.

٢٢- نفس المرجع: ص ٢١٣.

٢٣- نفس المرجع: ص ٢٥٦.

٢٤- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ٢٠٤.

٢٥- نفس المرجع: ص ٢١٣.

٢٦- زاهية مصطفى قدره: الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الأول، القاهرة،

١٩٥١م، ص ١٥٥.

في بغداد محور كثير من القصص التي امتزجت فيها الحقيقة بالخيال^(٢٧). وهان على الخلفاء حسب أقوال بعض الباحثين اتهام خصومهم بأبشع التهم كوسيلة للتخلص منهم^(٢٨) وصارت تهمة الزندقة خطيرة، ذهب ضحيتها العديد من السياسيين والشعراء والفلاسفة والأدباء في العصر العباسي^(٢٨).

وفضلاً عن ذلك قد اتهم الخلفاء العباسيون بأنهم مارسوا شتى أنواع اللهو والمجون بل ارتكبوا الكثير من المخالفات الشرعية فيقول أحد الباحثين مثلاً: "البلاط العباسي الذي كثرت فيه مجالس الشراب ولم يعد الخلفاء الذين كانوا جميعاً يشربون ويسمرون ما عدا المنصور يجدون حرجاً في الشراب واللهو وهذه كلها عادات كسرية"^(٢٩). ووصف الخليفة المهدي بأنه: "كان يحب السماع ويستهن بذكر النساء"^(٣٠). وأيضاً: "يعد الخليفة المهدي أول الخلفاء الذين بدءوا بحياة الترف والإسراف الواسع"^(٣١). ويقول: "عرف عن المهدي حبه لحديث النساء حتى صار للجواري نفوذ كبير في شؤون الدولة، وأحب

المهدي الاستماع إلى الغناء وحضور جلسات الغناء التي أجزل فيها العطاء للمغنين والسماح لأصحابه بشرب النبيذ في حضرته حتى أنه لم يستطع بعد ذلك أن يوقفهم عند حد معين فاندفعوا في تلك الحياة لا يلوون على شيء مما أعطى الحياة الاجتماعية وخاصة في بغداد طابعاً جديداً"^(٣٢).

ويقول باحث آخر: "ما أن تولى الخليفة المهدي عرش الخلافة حتى أباح اللهو والطرب وغلبت شهوة الغناء والطرب على طبقات المجتمع العباسي كافة"^(٣٣). وادعى باحث أن سياسة الخليفة المهدي أثرت سلباً على حياة المجتمع العقائدية والاجتماعية: "وما لا ريب فيه أن

٢٧- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ٢٥٦.

٢٨- نفس المرجع: ص ٢٠٦.

٢٩- قدوره: الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الأول، ص ٥٢.

٣٠- محمد مصطفى هدارة: المأمون الخليفة العالم، سلسلة أعلام العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص ١٧.

٣١- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ٢٥٦.

٣٢- نفس المرجع: ص ٥١.

٣٣- الحيدري: المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول، ص ٨٣.

إدمان الخمر حينئذ دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية وكان المجتمع زاخرا بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتى مجوسية وغير مجوسية فمضى كثيرون يطلقون لنفسهم العنان في ارتكاب الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين^(٣٤). وادعى باحث أن الخليفة المهدي كان مشغولا عن شؤون الدولة فيقول: "ولم تلبث سلطة الوزراء أن ازدادت بعد وفاة المنصور واستخلاف المهدي الذي انصرف إلى اللهو"^(٣٥). ويتهم الخليفة الهادي أيضاً: "أنه كان صاحب شراب ومجون"^(٣٦) وأيضاً: "غصت مجالس الهادي بأعداد كبيرة من المغنين والمغنيات"^(٣٧) أما الخليفة الرشيد فأصابه الشيء الكثير من الافتراء، منها: "كانت مجالس الرشيد تغص بكبار المغنين والجواري والمغنيات والموسيقيات، وقد روي أنه اتخذ ألفي جارية كانت لكل جارية منهن ميزة خاصة تصحبهن ثلاثمائة قينة للغناء والموسيقى"^(٣٨). وهو أيضاً "يهيم بالجمال والغناء ومجالس الشراب"^(٣٩) وقالوا: "أنه كان يتعاطى الخمر ويسكر مع الندماء وأبرزوه في صورة العريبيد الذي لا يفيق، وأفاضوا في الحديث عن وصف مجالس اللهو والمجون التي كانت تعقد في قصره إلى طلوع الشمس حتى التصقت قصة ألف ليلة وليلة بحياة الرشيد"، ثم يتحدث أحد الباحثين عن عهد الرشيد بشكل عام فيقول: "نجد أن عادة شرب الخمر قد مست حتى الهيئات الدينية"^(٤٠).

ليس هذا فحسب بل تعرضوا إلى الخليفة الرشيد بسمعته وشرفه وأسرته باختلافهم قصة العباسية وعلاقتها بجعفر البرمكي وجعلها سببا دفع الرشيد إلى إنهاء دور البرامكة في الدولة العباسية، وملخص هذه القصة إن الرشيد كانت له أخت اسمها عباسية وكانت أديبة مثقفة وكان الرشيد يحب مجالستها وفي نفس الوقت كان يحب مجالسة صديقه جعفر البرمكي ولكي يجمع بينهما في مجلس واحد في حضرته عقد لجعفر على أخته زواجا سوريا لكي يستطيع أن ينظر

-
- ٣٤- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص ٧١.
 ٣٥- الحيدري: المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول، ص ٥٢.
 ٣٦- هدارة: المأمون الخليفة العالم، ص ١٧.
 ٣٧- الحيدري: المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول، ص ٨٤.
 ٣٨- نفس المرجع: ص ٨٦.
 ٣٩- شوقي أبو خليل: في التاريخ الإسلامي، ص ٣٣٦.
 ٤٠- إبراهيم علي شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ٢٩٧.

إليها ويتحدث معها إذا حضرا لمجلس شراب الخليفة ولكن حدث أن اتصل جعفر بالعباسة اتصال الأزواج فحملت منه وولدت غلاما أرسلته بعيداً إلى مكة خوفاً من الرشيد وظل الأمر مستورا حتى وقع خلاف بين العباسية وبين بعض جواربها فأنهت الجارية أمرها إلى الرشيد وأخبرته بمكان الصبي ومع من هو من جواربها وما عليه من الحلبي التي زينته بها أمه، ولما حج الرشيد في تلك السنة أرسل في طلب الصبي ومن معه من حواضنه فلما أحضروه سال اللواتي معهن الصبي فاخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الجارية عن عباسة فأراد قتل الصبي ثم عدل عن ذلك، ولما عاد من الحج انتقم من البرامكة^(٤١). أما الخليفة الأمين فقيل عنه: "لم يتورع الأمين عن المجون والسكر"^(٤٢) وأيضاً "تعقد أحيانا كثيرة مجالس الطرب والغناء في غير المناسبات ... وربما أقام الخليفة أكثر من مجلس في ليلة واحدة وفي هذه المجالس كان يجتمع المغنون والموسيقيون والذمماء والشعراء فيغنون في حضرة الخليفة ويطرب الجميع فيبدأ الخليفة بتوزيع آلاف الدنانير على الجوارب والمغنيات والمغنين إضافة إلى الشعراء ... وانفرد الخليفة الأمين بتعلقه بالخصيان فطلبهم من أماكن مختلفة وجعلهم لخلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ورفض النساء والحرائر والإماء"^(٤٣). وورد عن الخليفة الأمين أيضاً أنه: "أول من قرب الخدم واستكثر منهم"^(٤٤) ووصف الخليفة المتوكل عند البعض بأنه كان "يسكر سكرًا شديداً"^(٤٥) ولم يتوقف الافتراء على الخلفاء العباسيين بل شمل أيضاً كبار أعوانهم، منه ما أصاب يحيى بن أكتثم قاضي قضاة المأمون فاتهموه بأنه كان يشرب الخمر ويعاقر الغلمان^(٤٦).

ثالثاً: تفنيد تلك الأباطيل:

لا بد لنا أولاً من وقفة قصيرة مع سياسة الدولة الإسلامية في العصر العباسي فقد يتصور البعض أن العهد العباسي عهد المجون والجوارب ومصادره في ذلك ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني، لقد كان نهج الخلفاء في العهد العباسي تأكيد السياسة الدينية للدولة من خلال ترسيخ

٤١- نفس المرجع: ص ٢٩٨.

٤٢- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ٢٥٨.

٤٣- نفس المرجع: ص ٢٥٨.

٤٤- نفس المرجع: ص ٢٥٦.

٤٥- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، ط/٤، ١٩٨١م، ص ٥، ١٣٦.

٤٦- شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ٣١٠-٣١١.

المفاهيم الإسلامية في المجتمع إذ كانت عقيدة الخلفاء العباسيين سليمة وقوية ولم يتكلم فيها أحد إلا ما كان من المأمون والمعتصم والواثق إذ كان ميلهم للمعتزلة، وانعكست عقيدتهم على الأعمال والأفعال فكان الخلفاء يؤدون الفرائض ولم يصلنا خبر يفيد أنهم قصروا في ذلك بل أن الأخبار تذهب إلى حرصهم الشديد على أداء هذه الفروض وأهمها الصلاة والحج والجهاد والإنفاق في السر والعلن، وكانوا يتولون الإمامة والخطبة بالناس واشتهد بعضهم بشدة الخشية من الله وورعهم^(٤٧)، فضلا عن اهتمامهم بالعدل وحرصهم على استقلال القضاء، فهذا الخليفة المنصور كان يبحث عن أربعة عمال لدولة: أما أحدهم ففاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقضي ولا يظلم الرعية فأني عن ظلمها غني، والرابع صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة^(٤٨)، وتمثل اهتمامهم بالقيم الدينية من خلال ضبط تصرفاتهم بضوابط الشريعة وعدم جرأتهم على مخالفة الشريعة في أقوالهم وأفعالهم، وحرصهم على تربية أولادهم على يد العلماء^(٤٩)، ليس هذا فحسب بل أننا نجد نقش خاتم كل خليفة يدل على تصوره الإسلامي وسياسته الدينية للدولة والمجتمع^(٥٠)، ونجد ذلك واضحا من خلال اهتمام الخلفاء العباسيين بالجهاد.

فهذا الخليفة المنصور جعل من أولوياته الجهاد ضد البيزنطيين الذين انتهزوا فرصة انشغال العباسيين في أيام دولتهم الأولى بالمشاكل الداخلية فأخذوا يغيرون على ثغور المسلمين الممتدة من أعالي الفرات شرقا إلى البحر المتوسط غربا، لهذا كان أول عمل اهتم به الخليفة المنصور هو إعادة تحصين تلك الثغور وتنظيم وسائل الدفاع فيها، وكانت هذه الثغور تنقسم إلى قسمين: الثغور الجزرية والثغور الشامية، فالمنصور حصن هذه الثغور وجعل لها حكما إداريا مستقلا وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين ومنحهم الإقطاعات والمزارع وبنى لهم البيوت والإصطبلات أنفق فيهم الأموال عن سعة كما وضع لهم نظاما يسيرون عليه في غاراتهم على الأراضي البيزنطية وهي نظام الصوائف والشواتي، وقد امتازت منطقة الثغور الشامية بأن الحملات التي تخرج منها كانت برية وبحرية في آن واحد وقد لعبت أساطيل الشام ومصر دورا

٤٧- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ص ٣، ٦٠٨.

٤٨- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٦، ٢٦.

٤٩- ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط/٣، ١٩٧٨م، ص ١٠، ص ٢٠٣.

٥٠- مؤيد فاضل ملا رشيد: شبهات حول العصر العباسي، ص ٨٨-٨٩.

هاما في الجهاد من خلال تصديها للأسطول البحري البيزنطي في موانئ البحر المتوسط، وهكذا استطاع الخليفة المنصور أن يضع حدا لمطامع البيزنطيين وعدوانهم بفضل اهتمامه بالثغور ورعايته للجهاد^(٥١)، وسار على ذلك الخليفة المهدي ففي سنة ١٦٦هـ / ٧٨٢م جهز الخليفة جيشا كبيرا عدده ٩٥ ألف مقاتل بقيادة ابنه هارون الرشيد للجهاد ضد البيزنطيين، وسار الرشيد بجيشه حتى بلغ ضفاف البوسفور فأسرعت الإمبراطورة ابرين إلى طلب الصلح مع المسلمين وتم الاتفاق على أن تدفع الإمبراطورة البيزنطية جزية سنوية إلى المسلمين قدرها ٧٠ ألف دينار^(٥٢)، أما الخليفة الرشيد فكان الجهاد شغله الشاغل ولعله في موقفه الحازم تجاه نقض نقفور ملك بيزنطة الاتفاق مع المسلمين خير دليل على ذلك إذ أجاب الخليفة الرشيد ملك الروم على ظهر كتابه قائلا "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام".

ثم جهز جيشاً ضخماً وقاده بنفسه لتأديب الروم الذين عادوا إلى طلب الصلح وأداء الجزية للمسلمين، وأوردت المصادر بأن الخليفة الرشيد كان يغزو عاما ويحج عاما طيلة سنوات خلافته فضلا عن اهتمامه بالثغور وإرسال حملات بحرية لإعادة جزيرة قبرص سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م^(٥٣)، واهتم الخليفة المأمون بالجهاد وخرج بنفسه لقتال الروم البيزنطيين عدة مرات للفترة من ٢١٤ - ٢١٨هـ^(٥٤) وكذا الحال بالنسبة للخليفة المعتصم الذي استجاب لنداء امرأة مسلمة أسرها الروم فنادت: وامعتصماه! فكانت معركة عمورية الشهيرة سنة ٢٢٣هـ^(٥٥).

وكان من سياسة الخلفاء في العصر العباسي الدفاع عن العقيدة ومحاربة الحركات الهدامة التي ظهرت في المجتمع خاصة الزندقة، فعلى سبيل المثال تصدى الخليفة المهدي وبصلاية لحركة خطيرة وهي حركة المقتع سنة ١٦٣هـ واجتهد في محاربة الزنادقة ودعاتها وأنشأ ديواناً لهذه المهمة أسماه ديوان الزنادقة، ورثيسه يدعى صاحب الزندقة توكل إليه مهمة البحث

٥١- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر البلاذري: فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٩١ - ١٩٢،

وحسن محمود أحمد الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة، (د. ت)، ص ١٥٦.

٥٢- شاعر مصطفى: دولة بني العباس، ص ٢، ٣٠٦.

٥٣- الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ص ٨، ص ٣٠٧-٣٠٨.

٥٤- نفس المرجع: ص ٦٢٥.

٥٥- نفس المرجع: ص ٣٣٢.

عنهم في كل مكان "جد المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم وولى أمرهم عمر الكلوذي"^(٥٦)، ولم يكتف الخليفة المهدي بإنشاء ديوان للزنادقة والبحث عنهم ومحاكمتهم بل أنشأ هيئة علمية لمناظرتهم والرد عليهم وتأليف الكتب للرد عليهم، ونجد سياسة الخلفاء واضحة من خلال تقريبهم للعلماء والفقهاء واستشارتهم^(٥٧)، وتحريمهم الدائم للصواب وإقرار العدل، ولا بأس أن نذكر هنا على سبيل المثال لـ الحصر اهتمام الخليفة المهدي بالعدل بين الناس "إذ كان يجلس للمظالم وإليه ترفع الشكاوي، وأمر الخليفة باتخاذ بيت له شبك حديد على الطريق توضع فيه الشكاوي والقصص يدخله هو بنفسه فيأخذ ما يقع بيده منها أولاً بأول وينظر فيها دون أن يتقدم بعضها على بعض بلا وجه حق"^(٥٨). ولا بد لنا من الإشارة إلى تأكيد الكثير من المؤرخين والعلماء على التزام الدولة في العهد العباسي بالإسلام وامتثال الخلفاء للدين وسعيهم الدائم لترسيخ المفاهيم الإسلامية في المجتمع يقول الماوردي: "فأما خلفاء بني العباس فقل من خلا منهم أو من أفاضلهم من خصال حميدة ... فقد كان منهم أبوالعباس السفاح ظاهر الزهد كثير الفضل والعلم، وكان أبو جعفر المنصور كثير العلم شديد الاعتقاد في الدين ... ثم كان ابنه على مذهبه وكان هارون الرشيد شديد التعصب للإسلام والديانة، ظاهر الشهامة جلدا في السياسة والحماية ذابا عن أركان الملة ثم كان من بعده المأمون .. سخفا بالعلم وكذلك المعتصم .. ثم كان الواثق المذكورا بشدة رغبته وولوعه بالعلم وأهله وتعظيمهم ومجالستهم والاستكثار منهم"^(٥٩). وورد أيضاً عن الدولة في العصر العباسي "إنها كانت دولة كثيرة المحاسن، جمة المكارم، أسواق العلوم فيها قائمة، وبضائع الآداب فيها نافقة وشعائر الدين فيها معظمة والخبرات فيها دائرة، والدنيا عامرة، والحرمان مرعية، والثغور محصنة"^(٦٠). ونجد من المناسب أن نذكر ما أورده ابن خلدون من نقد وتحليل وتفنييد لأخبار وردت في كتب المتقدمين عن العصر العباسي فيقول: "ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة في قصة العباسة

٥٦- نفس المرجع: ص ١٦٥.

٥٧- المسعودي: مروج الذهب، ص ٣، ٣٢٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص ٥، ٥٢.

٥٨- إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ٥٢.

٥٩- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي: نصيحة الملوك، دراسة سعيد بن سعيد، ط/١، بيروت،

١٩٨٢م، ص ١٥١.

٦٠- ابن كثير: البداية والنهاية، ص ٩، ٩٢.

أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاة أنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر أذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه وأن العباسية تحيلت عليه في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه حتى واقعها، زعموا في حالة سكر فحملت، ووشي بذلك للرشيدي فاستغضب، وهيهات ذلك من منصب العباسية في دينها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشرف الدين وعظماء الملة من بعده، والعباسية بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء بن عبد الله ترجمان القرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم.

ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعموميته وإمامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبية وسذاجة الدين، البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها أو أين توجد الطهارة والزكاء إذا فقد من بيتها؟ أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالى العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشرف قريش وغايته أن جذبت دولتهم بضيع أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف وكيف يسوغ من الرشيدي أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعظم آبائه، ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسية بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه، وأين قدر العباسية والرشيدي من الناس؟ وأنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيدي يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه^(٦١).

ثم يناقش ابن خلدون انكباب الرشيدي على الخمر وما شاع عنه من لهو ومجون فيقول: "فحاشى لله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيدي وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأدباء ومحاوراته للفضيل بن عياض ابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بركة في طوافه، وما كان

عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها، حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة، وكان يغزو عاما ويحج عاما^(٦٢).

ثم يعطينا ابن خلدون صوراً عن أحوال خلفاء بني العباس فيقول عن الخليفة المهدي: "وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال" وكيف كان "يباشر الخياطين في ارقاع الخلقان من ثياب عياله... فكيف يليق بالرشيد، على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوتيه، وما ربي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها، أن يعاقر الخمر ويجاهر بها، وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة.

وكان شربها مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآبؤه ثبج (في القمة) في اجتناب المذمومات في دينهم وديناهم، والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب... أولئك القوم كلهم كانوا بمذمجة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد، فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحلية (أي التحليل) إلى الحرمة؟ لقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج... وهكذا كان حالهم أيضاً في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم؟ ويتبين ذلك بآتم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة^(٦٣).

ثم ينتقل ابن خلدون إلى تفنيد ما شاع عند البعض عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقر الخمر... وحال ابن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم إنما كان النبيذ ولم يكن محظوراً... وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جماعة.

فأين هذا من المعاقرة، وأيضاً فإن يحيى بن أكثم كان من أهل الحديث وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي وخرج عنه الترمذي في كتابه الجامع وذكر المزملي الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع، فالقدح فيه قدح في جميعهم، وكذا ما ينيزه المجان بالميل إلى الغلمان بهتاناً على الله وفرية على العلماء مستندين في ذلك إلى أخبار القصاص الواهية التي لعلها من افتراء أعدائه...

٦٢- نفس المرجع: ص ٣٧٨.

٦٣- مقدمة ابن خلدون: ص ٣٧٨-٣٨١.

وقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال: سبحان الله ومن يقول هذا، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً وأثنى عليه إسماعيل القاضي فقبل له ما كان يقال فيه فقال: معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذيب باغ وحاسد، وقال أيضاً يحيى بن أكثم إبراء إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله لكنه كانت فيه دعاية وحسن خلق فرمي بما يرمى به، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: "يشتغل بم يحكى عنه لأن أكثرها لا يصح عنه" (٦٤).

* * * *